دوافع الانسان في العمل الفني

يبدو منطقياً ان قدرات انسان العصر الحجري القديم الفنية الرائعة, ما كانت تظهر الى حيز الوجود, كما تمثلها مخلفات الانسان الفنية من رسوم ومنحوتات, لولا وجود دوافع خاصة اخذت بتفكير الانسان ولبه وقادته الى تنفيذ تلك النماذج البديعة. وعل اهم ما يعترض الباحث في الكشف عن الدوافع الأساسية التي حذت بالفنان القديم لان ينفذ مثل هذه المواضيع هو تلك الصعوبة في فقدان الأدلة المادية التي يمكن الاستناد اليها في تثبيت الرأي الصحيح. وان أهمية الوصول الى معرفة تلك الدوافع, ضرورية جداً لافي سر الابداع في تلك الاعمال بالنسبة الى الفترة التي ظهرت فيها والتي تقدر بما بين (20–30) ألف سنة وان معرفتها تكون اساساً لتقييم المستوى الفني لذلك الانسان, وبالتالي وضعه في المواضع الذي يستحقه.

لقد كان ذلك الانسان صياداً ماهراً يعتمد في غذائه على مطاردة تلك الحيوانات التي عاصرته وكانت تهدده بالفناء والزوال, لذلك فإنها شغلت حيزاً كبيراً من تفكيره وطاقته. ان هذا الواقع المر في حياته اليومية والمخاوف التي كانت تحيط به, دفعته الى ابتكار طريقة تتفق مع مستواه العقلي للسيطرة على تلك الحيوانات والتخلص من شرورها. ويرجح على إعطاء تلك الطريقة نوعاً من صفة السحر. فكان يرسم صورة مطابقة للحيوانات معتقداً بانها ستمكنه من صيد تلك الحيوانات والسيطرة عليها. كلما كانت الصورة مطابقة للأصل كانت عملية الصيد اكثر نجاحاً, وانه مادام مسيطراً ومتمكناً من هذا البديل الذي رسمه قريباً منه وبين يديه وامام نظره ليل نهار فانه اعتقد –كما يظهر– بقدرته على السيطرة على الأصل. وعليه فان الغرض من عملية الرسم وممارسته هو تحقيق هدف اقتصادي سعى اليه الانسان الا وهو الحصول على قوته وغذائه, ذلك فان هدف الفنان القديم من رسم الحيوانات كان هدفاً مادياً بالدرجة الأولى. فالفن لم يكن في البداية غير وسيلة اتخذها الانسام لمحاكاة ما يحيط به من المحسوسات لاستخدامها في تحقيق مآربها المختلفة. لهذا كان الفن في تلك الفترة الموغلة في القدم بعيداً عن ان يكون أداة للتعبير عن الشؤون المعنوية التي لم تكن تعني الانسان شيئاً. بل عاش يساير الحاجات المادية للإنسان الأول, يهيئها له ويجعل مقاليدها بين يديه. وهكذا نشأ الفن اول مرة ليخدم به الانسان

حياته ويحقق وجوده. ولم يقصـــد به الى زخرفة او تجميل. اذ ان هذه المرحلة لاحقة لمرحلة الوجود الأول, وإذا اتفقنا ان للعامل الاقتصادي دوراً رئيسياً ومهماً في تنفيذ مثل هذه الاعمال.

وأن أهمية هذا الدور حتمته طبيعة حياة الانسان نفسه. فكيف يمكننا ان نفسر تلك الاناقة والروعة والدقة التي ظهرت بها تلك الاعمال؟ وهنا يجب ان نؤكد ان المستوى الفني لتلك الاعمال لم يصـل لدرجة النضـوج دفعة واحدة وانما مر بمراحل تطورية كان لزيادة الخبرة والممارسـة دوراً هام فيها, وإذا كان للعامل الاقتصـــادي دوراً مهم في جميع الأحوال, فإننا يجب ان نفكر بعوامل أخرى منها طريقة قتل الفراغ واستغلاله خصوصاً بعد حصول الانسان على طريدة, فبعد صيدها والتلذذ في أكلها, لا شك ان الانسان يلجأ الى للراحة والهدوء بعد المعاناة والجهود التي بذلها في مطاردة ذلك الحيوان. ومن المحتمل جداً انه خلال هذه الفترة كان يطلق لخياله العنان في استعراض شكل الحيوان الذي صاده, ومدى قوته وحركاته وكيفية مطاردته, فمن طريقة الرسم كان يقص لنفسه كفاحه اليومي. ولا يخلو كل ذلك من وجود الحافز الفني لدى فنان الكهوف, اذ ليس من المعقول ان يمارس الفن كل افراد الجماعات البشرية التي عاشت في هذه الفترة, فالراجح ان بعض افراد تلك الجماعات مارســوا الفن عن حب في العمل ولتلذذ بالإنتاج. ولعل ما يؤكد ذلك ان بعض تلك الرسـوم قد نفذت على سـقوف الكهوف العالية واروعها ما وجد على سـقوف كهف التامير في شـمال اسـبانيا, ولا يمكن تحقيق تلك الرسـوم الا إذا وقف الرسـام على مرتفع اصطناعي (سكلله) ونام على ظهره بإذلال كل ما اوتي من جهد ومعاناة وصبر طويل.